الشيخ محمد رضا النحوي

— ٢ —

عصره السياسي

واذا اردنا ان نطرق عصر النحوي السياسي فانما نحاول الخوض في ظلمات بعضها اشد من بعض ، ونذكر القارئ بعصر باشد مظلم ، وبسياسة رعناء غاشمه حاولت بكل قواها أن تفتك بالروح القوميه وبلغة الضاد معاً ، ولكن المناعة في العرب والعروبه ، وتلك القوة المتدفقة من ذلك الدم العربي الصافي قاومتا كل مقاومة في سبيل بعث الادب العربي المجيد وربطه بين حاضره وماضيه .

عاصر من ولاة الأتراك ببغداد سليمان باشا الكبير ، وهذا الوالي اذا ماأردنا ان نثبت لك صفحة من تاريخه وحكمه العراق فانما نثبت لك صورة عن الجور والضعف وهما الذان ادبا به الى انقراض امارته على يد مملوكه العلامة الوزير داوود باشا واخذه (الولاية) منه عام ١٢٢٧ هـ ، وربما توسع خيالك فتستنبط من ذلك التأريخ الاسود الذي مرّ على العراق وشيئاً من الجو الموبوء الذي خنق نفس العرب وعدم عليها ريح الحريه وأفقدها قوة الأمن ، وارسل عليها حاصباً من الجور والطغيان اشغلهم عن يقظة الفكر وشحذ الذهن ، وواصل الارهاب معهم دهراً غير قصير فخراب في البلاد ، وامراض ساريه أبادت المدن الكثيره وقضت على الأفذاذ من الآباء الصيد الذين اخذوا على عاتقهم تخليد مجـــدهم فأبلى آثارهم وأضاعها من جراء الحروب والنهب والاحراق والدمار . . . إرادات دكتاتوريه تبيد النفوس من دون محاكمة ولااستفهام وحكم صارم يفضي الى كبت الشعور وضعف التفكير .

في مثل هذا العصر المظلم عاش شاعرنا النحوي ، وتحت سماء هذا الحكم استظل هو وإخوانه اعضاء « معركة الخميس » مناضلين لما يطرأ عليهم بين آونة واخرى من العسف والجور قدحفوا بالمحاذير ، والبسوا أبراد الهوان ، في كل آونة يشعرون بضياع مجدهم ، قد كمت منهم الافواه واحدقوا بالرصد فاتجهوا الى الغزل الصناعي واعتنقوا اللطيف من البديع ، معربين بها عن ميولهم الدينيه وعواطفهم الخلقيـة وظرفهم الانساني النزيه ، وربما تصطدم نفوسهم او تحتدم مشاعرهم فلا يجدون متنفساً الا بما يطفو على ألسنتهم من الشعر (الاخواني) وهو الذي يساجل به بعضهم البعض الآخر ، او يذهب الى تخميس قصيدة في الغزل واخرى الى تعزيز مبدئه الديني فيلهو بذلك عن الخواطر التي لامجال لابرازها .

والنحوي شاعر عربي وثاب قد غمرته الروح القوميه وتحصن بالشعور العربي غير انه يفهمك من وراء حجاب انه مقطوع اللسان مهزول القلب بما يعانيه من التكلف لمباراة الشعراء والتعرف على نتاجهم بتخميسه وتشطيره ليعلمك مدى استطاعته ومقياس قوته وغزارة مادته ، وتراه يتلذذ بذكر القلوص والسيف احياناً ليقنع نفسه انه من اولاد اولئك الصيد الاشاوس .

وللظروف احكام على الأغلب تفرض نفسها على الانسان فتوجهه الى ميولها ، وللمحيط وازع يسير المرء الى حيث القصد المحبوب السامي ، والقرنان الثاني عشر والثالث عشر الهجريان عند الفحص لمن عاش بها تراه ميالا الى الغزل والنسيب ، وما ذاك الا ليخفف الشاعر اليقظ من كبته ، والسائد من عواطفه وميوله الجنسيه ، فهو اشبه ظرف بالقرون الوسطى وخاصة الثامن والتاسع منها ، فان المماليك اقاموا فيها دولا ، وفرضوا احكاماً نابية عن المنطق والفن سوى السيطرة والاخضاع .

وعصر النحوي هو اول عهد لظهور دول المماليك في العراق وناهيك بالتوجيه الذي يتكون من هكذا أحكام ماهو الا نشر العواطف التي تقتل العقل ، والرذيلة التي تناوم الفضيلة واستفحال الاذناب على الرؤس ، وكما قدمنا ان الظروف والمحيط قاهران .. ويجعلان المفكر يسير وفق رغبـــة العرف العام ومجاراة ميوله ، ولكن ربما اذا قوي الكبت في نفس ذلك الشاعر الحساس تراه يصعد انفاسه ولكن بين زمرته ممن يعرف تأكد المساواة الذهنيه بينه وبينهم ، ومع هذا تراه يحتاط من تلك الخواطر التي يشم منها مقاومة الحكم فيقضي

عليها ويودعها في ذمة الفضاء ويحتسبها عند الوجود العام ليوم يتحقق فيه التقاط اصوات النوابغ والعباقرة من الاثير فيفهمون من هو الشاعر حقاً وما قيل في العصور من رأي قويم .

مات في الحلة في ٢٦ رجب سنة ١٢٢٦ هج ونقل جثمانه الى النجف فدفن فيها ، ورثاه جميع شعراء عصره

وله عندي ديوان مخطوط جمعته بنفسي خلال زمن طويل وفرغت منه سنة ١٣٦٣ هج ويقع في ١٨٠ ص . عدد سطور ص ٢١ . طوله ٨ / ٢٤ سم . عرضه ٦/١٧ سم سمكه ٣/١ سم

واليك صورة من نثره ، وهي رسالة بعث بها الى السيد محمد أحد اولاد السيد سليمان الكبير الحلي مشفوعة بمرثيته التي تأخرت عن النظم حين ذاك . واليك نص الرساله :

غبّ الدعاء ، وخالص الولاء ، مزيد المدح والثناء ، للاحباء الاكارم ، والاجلاء الأعاظم ، السادة الخضارم ، والقادة القماقم ، المستغنين عن تعريفهم بذكر الاسماء ، بما أضافوه من شرفهم الى شرف الآباء ، ادام الله تعالى بوجودهم بهجة الوجود ، واسعد بدوام سعودهم رونق السعود ، وهذا دعاء للبرية شامل لايخفى عليكم حال المخلص القديم ، والداعي المقيم ، إن قريحته قد خمدت بعد الاتقاد ، وزناد طبعه بعد ذاك الوري قد رمي بالأصلاد ، وما ذاك الا دهاه من ذلك المصاب ؛ وصبه عليه من تفاقم الهموم وتراكم الأوصاب ؛ وقد عرض له مثل ذلك أيام وفاة الوالد المرحوم الشيخ المحترم والداعي الى الحالين واحد ، والشفقة والاخلاص منها ومن الحقير أعدل شاهد ؛ لكن جرى في الاثناء مانفس عن بعض ذلك الخمود ؛ واذن ببعض الجريان لذلك الجمود ، وما كان ذلك عن سلوة طاريه ولاعن لوعة كانت بين الجوانح عارية ، كان لغرام طرا ؛ عرى الصب فيه من الصبابة ماعرى ، فكان ما كان من بعث القلب على جريان اللسان كما تحكيه القصيده والمأمول ان لاتخرجونا من الخاطر العاطر والمأمول القبول ،

ماإن مدحت محمداً بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد

ومن مساجلاته التي جرت بينه وبين اصدقائه ما كتبه الى السيد صادق الفحام وهو في قرية « الحصين » قوله :

ياأديباً على الفرزدق قدسا د باحكام نظمه وجرير
وبسرّ الحديث آثره الله فأوفى علا على ابن الاثير
وبعلم اللغات فاق كثيراً من ذويها فضلا عن ابن كثير
باكروض الآداب عاد اريضاً ذا غدير يروي الظما بنمير
ورقيق القريض أضحى رقيقا لك لايانتهي الى تحرير
واذا ماحررت طرزت برداً ظل عنه المطرزي والحريري
حجج قصرّ ابن حجة عنها ودجا ليالها على ابن منير
لك نثر سما الدراري ونظم فاق در المنظوم والمنثور
حلم قيس واحنف نجل قيس طلت فيه العلى ورأي قصير
خلق كالرياض ديجا الطلل بند فعبرت عن عبير
وعلوم لو قيست الأبحر السبعة فيها ازرت بفيض البحور
ومزايا لو رمت احصاءها او ليت منها لم احص عشر العشير
فقليلي ولو حرصت سواء حين اسمو لعدها وكثيري
فتجشمت خطة لو سما الطرف اليها لرد اي حسير
عالماً آنني وان طال مدحي وثنائي عليك ذو تقصير
غير اني اقول لايسقط الميـ ـسور فيما يراد بالمعسور
فخذ العفو واعف عوفيت عني لقليل انبيته من كثير

فكتب له الجواب على الروي والقافيه :

ايها الناقد البصير ولا فخـ ـر وما كل ناقد ببصير
والمجلي لدى السباق اذا صلـ ـت جياد المنظوم والمنثور
والذي قد طوى بنشر بديع النظم ذكر الطائي دهر الدهور
وبه باقل غدى مثل سحبان وامثال جرول وجرير
وبه ابن العميد بات عميداً ذا غناء كالعاشق المهجور
وبه اصبح ابن عباد في الآـ ـداب عبداً لم يسم للتحرير
وابن هاني لم يبنه العيش واسـ ـود منير الرجا من ابن منير
وغدا ابن النبيه غير نبيه وتحامى البوصيرة البوصيري
والتهامي راح يتهم النفس بدعوى التبريز في التحبير
والسلامي لم يعد بسلام بعد تعريفه من التنكير
والرضي الشريف لم يرض في ملحمة النظم غيره من امير
والصفي الحلي لم ير عيشا مذ نشا صافياً من التكدير
وابن حجر الكندي القم فيه حجراً بعد سبقه المشهور
يامعيد الذماء من بارع الآـ ـداب بعد إنطاسه والدثور
وربيب المجد الذي دان في الفضل له كل فاضل نحرير
ومجلي غياهب الشك واللبس بنود (البيان) والتحرير
وجواداً للسبق جلى اخيراً فشأي كل اول واخير